

جامعة الفسطاط

الجامعة الأولى في مصر الإسلامية

د. محمد عبد المنعم خفاجي *

دخلت مصر في الإسلام، واستظلت بلوائه، وحملت راية العروبة والإسلام لأول مرة، منذ فتحها القائد العربي المسلم عمرو بن العاص .

وبنى عمرو عقب الفتح مدينة الفسطاط لتكون العاصمة الإسلامية الأولى عام ٢١ هـ، واتخذ الأماكن التي نزل بها جيشه معسكرا عاما، وبنى المسجد، وبنى حوله مدينة الفسطاط، التي توسطها المسجد الجامع، وأخذ يرفع الظلم عن كاهل المصريين، ويعاملهم بالعدل والإنصاف والرحمة، وأكبر المصريون شريعة عمرو وبلغته ودينه، فدخلوا في الإسلام أفواجا .

وكان عمرو بن العاص مع هذه الدنيا المقبلة ، والسعادة الغامرة، والسلطة النافذة، أسبق الناس إلى حق، وأبعدهم عن باطل، لم يعهد عليه أثناء ولايته على مصر نقض لعهد، ولا خفر لذمة، ولا انتهاك لحرمة، وقد نهض بإدارة شئون مصر إدارة حازمة رشيدة، دستورها مبادئ الإسلام، وشعارها الحق والعدل والمساواة والحرية. وأخذت الفسطاط تتسع وتزدهر، وصارت منذ إنشائها عام ٢١ هـ: ٦٤٢م عاصمة مصر السياسية، ومنارة الدين واللغة العربية والمعرفة والثقافة، ومقر العمران والحضارة والرخاء أجيالا طويلا.

وكان مسجد الفسطاط (أو مسجد عمرو

(١) أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

وبأنها فى غاية العمران والخصب، وبأن مبانها قد تبلغ الواحدة منها ثمانى طبقات.. وبنوه كذلك ابن حوقل بأهميتها الحضارية ، ويقول عنها المقدسى (- ٢٩٠ هـ) : إن الفسطاط هى «عاصمة» مصر، ومفخرة الإسلام ، ومتجر الأنام. وهى أجل من مدينة دار السلام، ويقول : إن حلقات (أى دروس) مسجدها الجامع ليس فى عواصم الإسلام أكبر منها .

وقام مسجد الفسطاط بدور الجامعة الإسلامية الأولى فى مصر أكثر من سبعة قرون، وعاشت هذه الجامعة العلمية الكبرى فى ظلال ازدهار الفسطاط وعمرانها ورخائها.

وكان قيام الحلقات العلمية والأدبية فى جامع الفسطاط، بعد إنشائه بقليل، رمزاً لحركة البناء والتجديد وطموح العقل الإسلامى المصرى المتوثب دائماً .

وأعتقد أن عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل، وابن أمير مصر عمرو بن العاص، كان هو المؤسس الأول لهذا الصرح الشامخ، ولهذه الجامعة الإسلامية الأولى فى مصر، وكان عبد الله من أئمة الصحابة والمحدثين، ولا بد أن يكون قد صارت له حلقة علمية فى جامع الفسطاط ، يتصدرها ليفيد الناس فى دينهم ودنياهم، من حيث يرى الدكتور على اليمنى دردير فى رسالته المخطوطة للدكتوراه والتى عنوانها «الحياة

بن العاص، أو تاج الجوامع، أو الجامع العتيق، أو مسجد الراية) هو أول مسجد قام فى مصر العربية، وكان هو بعد قليل جامعة الفسطاط الإسلامية الكبرى.

وكانت المساجد الكبرى فى العواصم الإسلامية، لا تلبث بعد إنشائها بقليل، أن تتحول إلى جامعات تنص بالعلماء وحلقات العلم والدراسة والبحث.

ولقد ازدهرت الفسطاط بتوالى الأيام، وصارت العاصمة الحضارية والعلمية والأدبية والاقتصادية لمصر كلها خلال أجيال عديدة، وصارت من أكثر الأمصار الإسلامية عمراناً، ورخاء وعظمة.

وجلس الصحابة والتابعون فى مسجد عمرو، يتصدرون الحلقات العلمية، ومجلس العلم، وشجع ولاية مصر العلماء على نشر الثقافة العربية فى كل مكان من أرض مصر، وأنشئت المساجد وأصبحت حلقاتها دوراً للثقافة، يتصدرها المحدثون والفقهاء والعلماء.

وكانت مدينة الفسطاط تؤدى دورها الحضارى فى تاريخ مصر والعالم الإسلامى ووفد عليها الشعراء من الجزيرة العربية كجميل وكثير ونصيب وأبمن بن خريم الأسدى وابن الرقيات، وكان الفرزدق قد عزم على زيارة الفسطاط والى مصر عبد العزيز ابن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) لولا أن جاءه نعى الأمير، ويصف الأصبخري فى القرن الرابع الهجرى الفسطاط بأنها مدينة مصر العظمى،

يعد امتدادا لفكر عبد الله بن عمرو بن العاص. ومن تلاميذ يزيد بن حبيب: ابن لهيعة «٩٦ - ١٦٠هـ»، والليث بن سعد «٩٤ - ١٧٥هـ»، وعبد الله بن وهب «١٢٤ - ٢٠٠هـ» الذي تأثر بأراء استاذة الليث بن سعد بطريق مباشر، وبأراء ابن حبيب بطريق غير مباشر. وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول عن «ابن لهيعة»: «عنده الأصول وعندنا الفروع»، كما كان يقول لطلابه في بغداد: «إن بمصر - أي الفسطاط - صحيفة في التفسير رواها علي ابن طلحة الهاشمي عن ابن عباس، لو رحل واحد منكم إلي مصر ليطلع عليها ما كان هذا كثيرا، ولابن وهب كتاب «الجامع في الحديث»، والليث بن سعد هو أحد المجتهدين الإعلام وصاحب مذهب من المذاهب المشهورة. وكتاب تلميذه ابن وهب «الجامع في الحديث» أقدم كتاب مصري مخطوط بدار الكتب المصرية، وعليه ما يفيد أن الكتاب قرئ في مدينة أسنا عام ٢٧٦ هـ كما ورد في «حسن المحاضرة» للسيوطي «١/١٦٨».

وهكذا ازدهرت حركة جامعة الفسطاط «جامع عمرو» العلمية، وزادت فيها مجالس العلم، وحلقات العلماء زيادة كبيرة، وأم هذا المسجد الجامع أو الجامعي الكثير من العلماء الأعلام، والأئمة المجتهدين، ممن أفادوا العالم الإسلامي، وأدوا له خدمات صادقة في مجال الثقافة والتعليم، وفي مختلف علوم الشريعة والدين واللغة والأدب والعلوم الأخرى.

الأدبية والنقدية في الفسطاط ومسجدها الجامع» أن يزيد بن حبيب الذي بعث به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي إلي الفسطاط هو مؤسس مدرسة الفسطاط العلمية، وهذه الرسالة القيمة جديرة بأن تتبنى هيئة من هيئاتنا العلمية نشرها لأهميتها.

إن عبد الله بن عمرو بن العاص كان بمثابة الروح الباني للحلقات العلمية الجامعية في جامعة الفسطاط، وقد أخذت هذه الحلقات تكبر وتنمو شيئا فشيئا، وتتسع دائرتها، وتفيد العقل الإسلامي الجديد فائدة جلي. ويكون يزيد بن حبيب تاليا لعبد الله بن عمرو ابن العاص في ذلك المجال، ويذكر الدكتور دردير نصا للسيوطي في كتابه «حسن المحاضرة - ١/١١٩» هو أن يزيد بن حبيب كان «أول من أظهر العلم بمصر، وبين المسائل في الحرام والحلال وكان الناس قبله يتحدثون في الترغيب والترهيب والملاحم والفتن»، وكان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز قد بعث به إلى مصر، كما بعث كذلك بنافع مولى عبد الله بن عمر «المتوفي عام ١٢٠هـ» ليعلم أهلها السنن والقراءات، وقد صار لنافع مدرسة علمية في القراءات في جامعة الفسطاط وكان من أعلامها الثقات في القراءات، ثم تلاه عثمان بن سعيد «ورش» الذي يذكر ياقوت في «معجم الأدياء» أنه كان له مجلس عامر.

ومن مدرسة الحديث عطاء بن دينار الهذلي «المتوفي عام ١٢٠هـ» وهو بالطبع

الفرج، كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفي فيها علي ידי القاضي اسماعيل بن سميع الكندي، الذي ولاه العباسيون عام ١٦٤هـ قضاء مصر، فعمل علي نشر مذهب أبي حنيفة فيها.

وكذلك نشر الحنابلة مذهبهم في أرجاء مصر. ومن علماء مسجد عمرو كذلك اسحاق بن الفرات تلميذ الليث بن سعد «توفي عام ٢٠٤هـ» وقال عنه الشافعي: ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس، وكذلك اسحاق بن بكر «٢١٨هـ»، وكان يجلس في حلقة الليث ويفتي بقوله، والطحاوي وإليه انتهت رئاسة الأحناف في مصر «٢٢٩ - ٣٢١ هـ» وبكار ابن قتيبة من قضاة مصر الأحناف «٢١٠ - ٢٧٠هـ».

وقامت في جامع عمرو حلقة تاريخية تصدرها محمد بن اسحاق صاحب السيرة «١٥١هـ»، ثم عبد المطلب بن هشام رابيته، ومحمد بن أبي الليث، كما وقد عليها ابن وراء صنع حبكة خاصة بها من جر الحلقة المؤرخون المصريون. مثل ابن عبد الحكم المصري مؤلف كتاب «فتوح مصر» «١٦٩ - ٢٥٦هـ»، ووالده عبد الله بن الحكم «١٥٠ - ٢١٤هـ»، والكندي، وابن يونس «٢٨١ - ٣٤٧هـ» وعمار ابن وسيعه المصري «٢٨٩هـ»، وابن زولاق المصري «٣٠٦ - ٣٨٧هـ» الذي ولد بالفسطاط.

ومن مدرسة اللغويين النحويين الأدباء في

وقد قصد الكثير من الشعراء مصر، ووفدوا إلي الفسطاط وجلسوا في حلقات جامعتها الإسلامية الكبرى.. أبو تمام الطائي «١٩٠ - ٢٣١هـ» تعلم في هذه الحلقات، وأبو نواس وفد علي الخصب أمير مصر، وجلس في حلقات المسجد الجامع وأفاد منها.

ولما وفد الإمام الشافعي إلى مصر عام ١٩٨هـ وأملي فيها مذهب الجديد، كان مسجد عمرو أو جامعة الفسطاط، مركز نشاطه العلمي الديني، حيث صارت له حلقة فيه، وزاوية منه كان يدرس فيها مذهب، ويدون آراءه، وعلي يديه تخرج كثير من العلماء الذين دونوا المذهب، ونشروا علم أستاذهم، كالربيع بن سليمان المرادي «عام ١٧٤ - ٢٧٠هـ» والبويطي «٢٣١هـ» والربع الجيزي الذي ينسب إليه جمع كتاب الأم وترتيبه بعد البويطي «١٤٦ - ٢٢٦هـ» والحسين بن عبد السلام المعروف بالجمال الأكبر «١٧٠ - ٢٥٨هـ» وكذلك سعيد بن عفير.

وكان عبد الله بن طاهر أمير مصر يجعل سعيد بن عفير ثالث عجائب مصر بعد الهرميين والنيل:

ومن جامع الفسطاط انتشر مذهب الشافعي علي أيدي تلاميذه، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكي الذي كان أول من أعلنه في مصر ونشره فيها عثمان بن الحكم الجذامي، ومن شيوخ المالكية فيها إصبع ابن

فكر وإبداع

ولازم حلقة العلمية في هذه الجامعة «جامعة الفسطاط»، ولازمه، وأخذ الكثير عنه، كما يقول السيوطي في كتابه «بغية الوعاة» - ص ١٧٤، متخذاً في ذلك سنن أستاذه الإمام الشافعي الذي كان يجلس في جامع عمرو يلقي فيه دروسه العلمية الحافلة حتي استأثرت به رحمة الله.

وكما كان أبو نواس من قبل ١٤٥هـ ١٩٨هـ «يجلس في حلقة في جامعة الفسطاط، ويتخذ له مجلساً أدبياً في المسجد الجامع، ويلتف حوله الشعراء والأدباء والنقاد، أثناء إقامته في مصر، كان كذلك يفعل أبو الطيب المتنبي أثناء إقامته في الفسطاط ٢٤٦ - ٣٩٠هـ»، ويجلس في حلقة خاصة في جامعة الفسطاط وحوله الشعراء والنقاد والأدباء يملئ وينشد شعره لهم، ويستمتع لنقدهم، ويجاريهم ويحاجونه، وكان ممن أخذوا ينقدون شعره: الوزير ابن حنظلة وزير كافور الأخشيدي «٢٥٧هـ» لأن المتنبي أبي أن يمدحه، وكذلك سيبويه المصري أبو بكر محمد بن موسي الصيرفي، وسواهما. وكان هناك في حلقة مسجد الفسطاط لفيف من الشعراء يبذلون إعجابهم الشديد بالمتنبي وشاعريته، ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي الجوع، وصالح بن رشدين الكاتب، وابن طباطبا العلوي المصري وسواهم.

وهكذا تعددت الحلقات وتنوعت في جامعة الفسطاط وتصدرها كبار العلماء والأدباء

جامعة الفسطاط : ابن ولاد «٢٣٢هـ» شيخ العربية في مصر كما يقول السيوطي في كتابه حسن المحاضرة «٢٢٨/١»، وأحمد بن يوسف بن الداية صاحب كتاب «المكافأة» وقد توفي بعد عام ٢٣٠هـ، والحسن بن داود بن بابشاذ المصري النحوي المشهور «٢٣٩هـ»، وأبو جعفر النحاس «٢٣٨هـ»، والأدفي النحوي المفسر «٣٨٨هـ» .. ويروي ياقوت في كتابه «معجم الأدباء» أن الطلاب المصريين في جامع عمرو سألوا ابن جرير الطبري «٣١٠هـ» أن يملئ عليهم شعر الطرماح، وكانوا لا يعرفون شيئاً منه، وكان ممن سأل في ذلك عبي بن سراج المصري، فأجابهم إلي طلبهم، وأخذ يملئ عليهم ويفسر غريبه «٢٤٢/٦ - معجم الأدباء».

ومن العلماء الأجلء أبو بكر بن الحداد «٢٦٥ - ٣٤٥هـ» وكان كما يقول السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» «١٢٦/١» يلقب بفتية مصر وفصيحتها وعابدها، وكان يدرس في جامع عمرو.

وقد وفد علي مصر أبو العباس الناشئ الأكبر «٢٩٢هـ» والقي آراءه في الشعر والنقد في مسجد عمرو.

وقد تصدر حلقات العلم في هذه الجامعة الكبيرة بعض الوزراء، من مثل أحمد بن يحيى الوزير، وابن سليمان التجيبي «١٧١ - ٢٥٠هـ» وكان له مجلس عام بجامع عمرو، وقد صحب الشافعي حين وفد إلي مصر

وظل مسجد الفسطاط الجامعي منتدباً لأهل الفضل والأدب، وحمل لواء الثقافة الإسلامية العربية خافقاً عالياً، كما كانت الفسطاط مدينة حضارية ذات منزلة علمية وفكرية وأدبية واقتصادية رفيعة.

وإذا كان الجامع الأزهر أخذ ينافس المسجد الجامع الجامعي في الفسطاط في حلقاته العلمية ومجالسه الأدبية، كما أخذت دار الحكمة تنافسهما معاً، حيث صارت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية، فإن الفسطاط وقد فقد رعاية الدولة لم تضعف قوته، ولم تثن قناته، واحتفظت جامعة الفسطاط بأهميتها ويطابعها الديني والأدبي معاً، وفي فترات ضعف الخلافة الفاطمية كانت الفسطاط وحلقاتها العلمية تتفوق على القاهرة، مما تحدث عنه الكثير ممن زاروا مصر من العلماء والرحالة المسلمين، من مثل أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت «٤٥٩هـ» الذي وفد على مصر ودرس الحركة الأدبية والفكرية فيها، وكتب عنها رسالة بقي منها صفحات قليلة هي التي وصلتنا، تحدث فيه ابن أبي الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها، ومجالسهم الفكرية والأدبية. وكانت الفسطاط آنذاك أيضاً من أغني الأمصار الإسلامية، وأكثرها رخاء.. وقد وصفها القاضي محمد بن سلامة القضاعي «٤٥٤هـ» في القرن الخامس ووصف عمرانها

والمفكرين والنقاد، وخرجت هذه الحلقات أجيالاً عظيمة من الباحثين والمتخصصين عاماً بعد عام، مما أمد مصر بهالة من الجلال، وجعلها تنصدر أمم العالم الإسلامي في حمل رسالة الدين والثقافة والحضارة، حتي لقد سبقت بغداد في هذا المضمار.

واستمرت جامعة الفسطاط تؤدي دورها الحضاري، وبفضل هذه الجامعة أصدر أمير مصر الأموي عبد الله بن عبد الملك أمراً رسمياً عام ٨٧ هـ بأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة.

ولما انتقلت الدولة في مصر إلي الفاطميين من عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م واستمرت في أيديهم قرنين كاملين أو يزيد، حتي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م. شيد الفاطميون الأزهر، وافتتح في رمضان من عام ٣٦١ هـ، ولم يلبث أن أقيمت الحلقات العلمية فيه، وصار جامعة إسلامية ثانية في مصر، ثم أقام الحاكم الفاطمي دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة، عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥م، والتي نافست الأزهر أيضاً في رسالته العلمية الجامعة، ومع ذلك كله فقد كانت مكانة الفسطاط وجامعة الفسطاط قوية ضخمة، لم تتأثر بالعواصف المسيلسية المهوج، فاستمرت جامعة الفسطاط في مسارها العلمي، فالحلقات العلمية والطلاب، ظلت كما هي، وظل التدريس في مسجد عمرو طويلاً.

وازدهارها.

وأدبائها، وشاعرها أبي الحسن الجزار (٦٧٩ هـ) وكانت الفسطاط قد استردت الكثير من بهائها السالف، وأهميتها الاجتماعية القديمة، وظل مسجد عمرو برغم الأحداث عامرا بطلقات العلم والدرس، وإن كان لم يعد إلي شموخه القديم.

ولم يتخل المسجد الجامع - جامعة الفسطاط - عن دوره الحضاري والفكري والأدبي حتي بدايات القرن الثامن الهجري .. ثم سكنت الصوت، وخفت الضوء، وحمل الأزهر وحده عبء الثقافة الإسلامية في مصر العربية، وهكذا انتهى دور جامعة الفسطاط الإسلامية . والله بيده الأمر ، وهو المقدر والمدبر ، وإليه المصير.

وفي الفسطاط كانت سوق الكتب رائجة وكانت صناعة النسخ واسعة النطاق يعيش منها مئات من المشتغلين بالعلم، وحلقات العلم تعقد في المساجد، وكان جامع عمرو، الذي يسمى تاج الجوامع، مكان التحديث والتدريس منذ عهد الصحابة .

واستمرت هذه الحلقات العلمية كل يوم بلا انقطاع في جامع عمرو، وكانت لا تقل عن بضع وأربعين حلقة في عام ٧٤٩ هـ ، كما يقول السيوطي في «حسن المحاضرة» (١٣٦/٢).

وأحرقت الفسطاط في عهد الحاكم ثم في عهد شاور عام ٥٦٤ هـ ، وفي الحريق الثاني محيت هذه المدينة الإسلامية بما فيها من زكريات ومكتبات ومدارس ومعاهد علمية. ومع ذلك أخذ الناس يعمرّون الفسطاط في عهد صلاح الدين الأيوبي، ويسكنونها، ويقيمون فيها، وينظمون الحلقات العلمية والأدبية من جديد في مسجدها الجامع.

وفي القرن السابع وفد ابن سعيد الأندلسي إلى الفسطاط عام ٦٢٧ هـ، ووصفها في كتابه (المغرب في حلي المغرب) الذي أقرده منه فصلا كبيرا عن الفسطاط بعنوان «الاغتباط في حلي الفسطاط» وقد نشر في مصر، تحدث فيه عن المدينة